ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 249-279

قلعة مونتفورت "القرين" الصّليبيّة 625- 669هـ/ 1227- 1271م: دراسة تاريخيّة أثريّة

فتحية الفرّوجي
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله،
fethia.elfarroudji@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 18/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 03/ 11/ 2019

Crusader castle of Montfort (al-Qurayn) 625-669 H/1227-1271 AD: A Historical-Archaeological study

Abstract:

During the period of the Crusades, the Levant saw inhabitable interests with the construction of castles and fortifications, which it's peaked in the twelfth and thirteenth centuries. This phenomenon was strongly ruled as an inevitable necessity demanded by the nature of armed conflict between Muslims and Crusaders coming from Europe at that time.

After the Crusaders took control of large parts of the Levant and their settlement in those lands, they had to seek the necessary protection for their emerging dominions. This was the superior concern of Crusader leaders, who spend enormous efforts to constructed and rebuild a dozens of

المؤلف المراسل: فتحية الفروجي
fethia.elfarroudji@univ-alger2.dz

fortresses and castles that still witness nowadays On an interval station in the history of relations between the West Christendom and the Islamic Near East.

This study aims at shedding light on al-Qurayn castle, which known in historical documents as the Crusader fortress of Montfort, it’s erected by the Teutonic knights, one of the most important military religious orders in the Levant in the first half of the thirteenth century. The castle located halfway between Acre and Tyre, under the feudality of Crusader kingdom of Acre.

Montfort considered one of the most important defensive military strongholds, with a defensive style, distinctively by the immunity of it's location, unlike the Crusader castles in the Islamic Near East, it did not made any of immense threaten on Muslim’s territories. Montfort is one of the most stronger crusader strongholds in Palestine built by the Teutonic Knights in the 13th century.

Keywords: crusaders; Teutonic order ؛crusader castles; al-Qurayn; Hermman; Von Salza.

الملخّص:

شهدت بلاد الشّام إبّان فترة الحروب الصّليبية اهتماما غير مسبوق بتشييد القلاع والاستحكامات، بلغ ذروته إبّان القرنين الثاني عشر والثّالث عشر الميلاديين، سادت هذه الظّاهرة بشكل قويّ باعتبارها ضرورة حتميّة أملتها طبيعة الصّراع المسلّح القائم بين المسلمين والصّليبيّين الوافدين من أوربا وقتذاك.

عقب استيلاء هؤلاء الصّليبيّين على أجزاء واسعة من بلاد الشّام واستقرار ملكهم بهذه الرّبوع، كان لزاما عليهم السّعي إلى توفير الحماية المطلوبة لمستعمراتهم النّاشئة، وشكّلت هذه المسألة الشّغل الشّاغل للقادة الصّليبيّن، الذين سخّروا مجهودات جبّارة وثروات هائلة لتشيّيد عشرات الحصون والقلاع التي لا يزال بعضها حتى اليوم شاهدا على تلك المحطّة الفاصلة في تاريخ العلاقات بين الغرب المسيحي والشّرق الأدنى الإسلامي. وتعدّ قلعة مونتفورت التّابعة لهيئة الفرسان التيوتون (أنظر التّعليق رقم:1) من بين أهمّ المعاقل العسكريّة الصّليبيّة المنيعة في بلاد الشّام، تميّزت بأسلوبها الدّفاعيّ وحصانة موقعها.

الكلمات المفتاحيّة: الصّليبيّون؛ القلاع الصليبيّة؛ الفرسان التيوتون؛ القرين؛ هرمان سالزا.

مقدّمة:

في أعقاب الحملة الصّليبيّة السّادسة حصد تنظيم الفرسان التيوتون، الذي خرج من رحم الحملة الثّالثة، عددا معتبرا من الامتيازات والإقطاعيّات، كان على رأسها قلعة القرين الصّليبيّة المعروفة في الوثائق التّاريخيّة باسم مونتفورت، أعاد التّنظيم الألماني تشييدها في أواخر عشرينيّات القرن الثّالث عشر الميلاديّ وشكّلت أبرز معاقله في بلاد الشّام.

بناء على ما تقدّم، وعلى ضوء المادّة التّاريخية والدّراسات الأثريّة، تتمحور الإشكاليّة حول تحديد تاريخ تشييد القلعة، وذلك في ظلّ تباين المعطيات، وإذا علمنا أنّ موقع مونتفورت ذو طبيعة دفاعيّة أكثر من كونها هجوميّة، فما هو الدور الذي اضطلعت به القلعة و ما هي مكانتها ضمن القلاع الصليبية الأخرى؟ في سياق معالجة جملة هذه النّقاط سنعيد رسم ملامح القلعة ومخطّطها المعماريّ بالاستناد إلى نتائج الأبحاث الأثريّة.

ـ الموقع الجغرافي لقلعة مونتفورت:

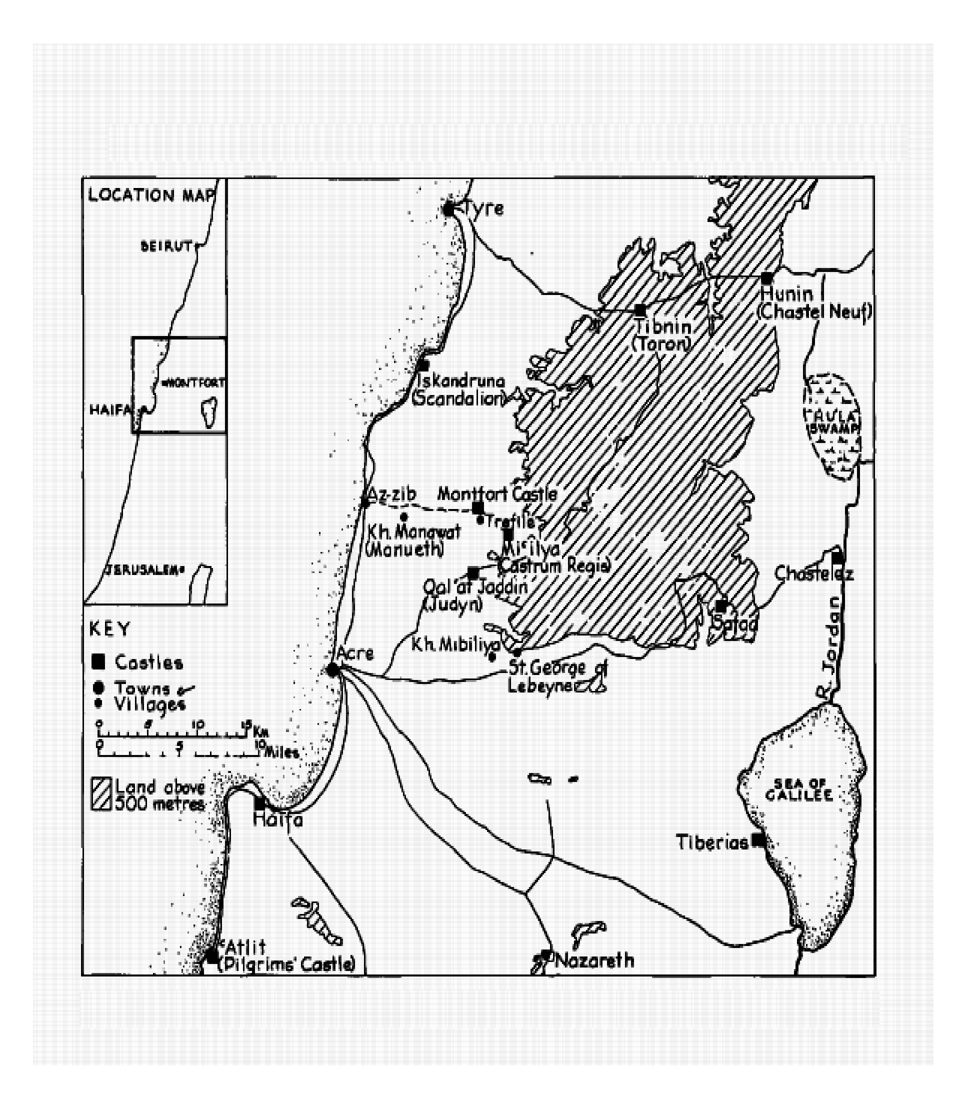
تقع قلعة مونتفورت في شمالي فلسطين على بعد حوالي عشرين كيلومترا (20كلم) شمالي شرق مدينة عكّا على الضّفّة الغربيّة لنهر

الجليل، وترتفع عن سطح البحر بحوالي مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة متر(250/ 300م)(Pringle R., Leach peter:1986:52) . (أنظر الخريطة رقم 1) . تتربّع مونتفورت على هضبة شديدة الانحدار من الجهة الشّماليّة والجنوبيّة وكذا الشّرقيّة، يتراوح عرضها 65 مترا(خمسٌ وستّون م) فيما يبلغ ارتفاعها 180 مترا(مائة وخمس وثمانون م) عن وادي القرن الذي يطوّقها من الجهتين، الشّماليّة الشّرقيّة والجنوبيّة الغربيّة. (Rafael Lewis:2017:283)

ومن الجليّ أنّ مونتفورت تعدّ من بين القلاع الصّليبيّة الدّاخليّة التي يغلب عليها الطّابع الدّفاعي بالنّظر إلى موقعها الذي يتمتّع بتحصين طبيعيّ يصعب اختراقه، إذ وصفها ابن أيبك والدّمشقي بالقول أنّها قلعة منيعة بين جبلين صعبة المرام (الدّمشقي،1865: 211/ ابن أيبك: 8:162) .

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019
ص.ص 249-279

الخريطة رقم(1):



(Pringle R., Leach peter:1986:53)

ـ أصل التّسمية:

جاءت القلعة في المصادر التّاريخيّة بأكثر من تسميّة واحدة، فقد ذكرتها المصادر العربيّة باسم قلعة القُرين بضمّ القاف (المقريزي: 1:1936: 593). والأكيد، أنّ هذه التّسمية مرتبطة بشكل مباشر بوادي القرين أو القرن الذي يعد المنفذ الجنوبي لهذا الحصن.

أمّا في المصادر والمراجع الغربيّة فقد اشتهرت باسم قلعة مونتفورت (Montfort)(بورشارد:1959:58؛)، وهي التّسميّة التي تباينت حولها آراء الباحثين، بين كونها مستوحاة من لقب العائلة الفرنسيّة العريقة مونتفرات(Montferrat) وهي مغالطة لا أساس لها، أو أنّها استمدّته من اللغة الفرنسيّة(Mont fort) نسبة إلى موقعها، أي التلّ المنيع(851: 2006 : Alan Murray)، ويبقى هذا الرأي الأقرب للصّواب. عقب شراء الصّليبيّين الألمان موقع قلعة مونتفورت ترجمت التّسمية إلى لغتهم الأم، وصارت تعرف بشتاركنبورغ(Starkenberg) (Halmut Nickel: 1989 : 35).

ـ الأصول التاريخيّة لموقع قلعة مونتفورت:

تشير الدّراسات الأثريّة إلى أنّ تاريخ بناء موقع قلعة مونتفورت ضارب بجذوره في عصور ما قبل التّاريخ، تحديدا الحقبة المكابيّة

والرّومانيّة(Bashford Dean: 1927: 6). قام الصّليبيّون بعد استقرار ملكهم في شمالي عكّا ببناء قرية في محيط الموقع، عرفت في السّجلات التّاريخيّة باسم تارفيل (Tarphile) أو طرطيلا (Pringle R., Leach peter:1986:52)، كانت هذه الأخيرة إقطاعيّة تابعة للقلعة الملكيّة أو قلعة الملك (Castellum Regis) الواقعة اليوم ضمن منطقة معليا المحتلة في شمالي فلسطين.(Bashford Dean: 1927: 6)

وردت أوّل إشارة إلى القلعة الملكيّة الجديدة وملحقاتها في وثيقة مؤرّخة في 28 جانفي/ كانون الثّاني عام 1160م(556هـ)، حينما ملّك بلدوين الثّالث(Baldwin III) ملك بيت المقدس القلعة وما جاورها لشخص اسمه يوحنّا من حيفا(John of Haifa)" (Rabie Khamisy 2017: 128-129). انتقلت ملكيّة الإقطاع في 24 فيفري/ شباط عام 1182م(578هـ) إلى جوسلين الثّالث كورتناي (Joceline III Courtney) كونت الرّها (1159ـ1190م) عن طريق ابن أخته بلدوين الرّابع(المجذوم) (Baldwin IV) (أنظر التّعليق رقم:2).

ـ استحواذ الفرسان التيوتون على ملكيّة الإقطاع.

عقب معركة حطين عام 1187م(583هـ) فقد الصّليبيون الإقطاعيّة لصالح المسلمين، بيد أنّ هدنة الرّملة كفلت لوريثتي جوسلين

الثّالث كورتناي، أجنيس(Agnes) وبياتريس(Beatrice) استعادتها (Rabie Khamisy 2017: 128-129).

تمكّن المقدّم الأوّل لهيئة الفرسان التيوتون المحنّك هرمان سالزا (Herman Von Salza) في أواخر شهر ماي/ أيار 1220م/ 617هـ (أنظر تعليق رقم:3) من شراء جميع الإقطاعيّات التّابعة للقلعة الملكيّة الجديدة التي تشمل سبعا وثلاثين(37) ضيعة (حسن عبد الوهاب حسين:1989:186)، من ضمنها تارفيل من بياتريس وزوجها أوتو أوف هانبورغ(Otto of Hennberg)، مقابل سبعة آلاف(7000) ماركيّة فضيّة وألفي بيزنت صليبي (Adrian Boas :2006:118). علاوة على ذلك، قام هرمان بتسديد دين وليام أوف ماندلييه (William of Mandalé) زوج أجنيس الوريثة الصغرى لجوسلين كورتناي، والمقدّر بثلاثة آلاف ومائتين وخمسون(3250) بيزنت صليبي. Strens Indrikis) (1985 : 354.

إنّ الهيئة الألمانيّة، ورغم حرصها على نيل رضا واعتراف جميع الأطراف بهذا المكسب، بمن فيهم يوحنّا أوف برين(John of Brienne) ملك بيت المقدس الذي زكّى عمليّة الشّراء، إلاّ أنّ يوحنّا أميغدالا(John of Amigdala) وريث أجنيس، ما لبث أن طالب بحقوقه وأبى منح الهيئة بعض الأجزاء. (Khamisy: 2017: 128-129 Rabei). في

جانفي/كانون الثّاني عام 1226م(623هـ)، تدخّل الإمبراطور فريدريك الثّاني(Frederick II)(أنظر التّعليق رقم:4) ولم يكتف بالبتّ في القضيّة لصالح هيئة الفرسان التيوتون، بل إنّه قدّم تعويضا لهذه الأخيرة عن الدّين الذي دفعته عن وليام أوف ماندلييه والد يوحنّا (Boas Adrian: 2006: 89). في 20 أفريل/نيسان عام 1228م(626هـ)، قيّض لهيئة الفرسان التيوتون شراء موقع قلعة مونتفورت بالإضافة إلى خمسة عشر (15) قرية وفق ما يؤكّده أدريان بوّاز (Boas Adrian: 2006 : 89)

دفعت الهيئة مجدّدا ليوحنّا أميغدالا مالك القلعة الرّئيسي ستة آلاف وأربعمائة(6400) بيزنت صليبي أي ما يوازي خمسة وعشرون كيلوغراما(25كغ) من الذّهب(Andrikis Sterns:1985:352)، يتمّ تسديدها على أقساط في السّنة بواقع ألف وستمائة بيزنت وتمّ تأكيد صفقة الشّراء من لدن الإمبراطور فريدريك الثّاني في أفريل/ نيسان في السّنة الموالية (1229م/ 627هـ)(حسن عبد الوهاب حسين،191:1989).

ـ تاريخ تشييد القلعة.

في الحقيقة إنّ تاريخ أوّل بناء لقلعة مونتفورت يعدّ غامضا لدى المؤرّخين، وكلّ ما تداولته الأبحاث هو مجرّد إشارات مفادها أنّ القلعة كانت عبارة عن حصن صغير بناه الفرنسيّون إبّان القرن الثّاني عشر

الميلاديّ، وسمي مونتفورت نسبة إلى طبيعة تضاريس الموقع الذي يتربّع عليه(Halmut Nickel: 1989 : 35) .

إنّ فكرة إقامة معقل جديد يتولى عبء القيادة العامّة لهيئة الفرسان التيوتون، وتحديدا في مقر القلعة القديمة التي شيّدها الفرنسيّون، ترجع لمقدّمها هرمان سالزا، الذي رأى بثاقب نظره وجوب تلافي هيئته الاحتكاك مع المسلمين، ناهيك عن نأيها بنفسها عن خصميها العتيدين، تنظيمي فرسان المعبد والاسبتاريّة. كما أنّ إصرار سالزا على حيازة المنطقة الشّمالية خلف عكّا لم يأت من فراغ، فعلاوة على أهمّيّتها الاقتصاديّة، فإنّ موقع مونتفورت يعدّ استراتيجيّا بالنّظر إلى كونه محصّن طبيعيّا، ممّا كان سيكفي الهيئة تشييد الدّفاعات الضّخمة المتكتّلة.

لقد تباينت الدّراسات التّاريخيّة الحديثة التي تناولت موضوع قلعة مونتفورت حول تاريخ إعادة بناء القلعة، منها ما تبنّت سنة 1226م(623هـ)، وهي السّنة التي نالت فيها الهيئة اعتراف ملك بيت المقدس جون أوف برين بسلسلة الأملاك التي حازتها، وبين أخرى رجّحت أنّ ذلك تمّ فقط بعد عقد معاهدة يافا 1229م(627هـ) بين السّلطان الأيوبي الكامل والإمبراطور فريدريك الثّاني(Sterns) 354: Andrikis:1985، والتي أجازت في إحدى بنودها أحقّيّة الصّليبيّين تحصين بيت المقدس وفق إجماع المصادر الإسلاميّة والصّليبيّة،

رغم اختلافهما فيما تعلّق بحق بناء وتدعيم استحكامات قلاع مونتفورت، يافا وقيساريّة (عبد الوهاب حسين، 20:1989-209).

الواقع أنّ الفرضيّة الأخيرة تجانب الصّواب إلى حدّ ما، فإذا كانت المصادر الإسلاميّة والغربيّة قد أجمعت على أنّ معاهدة يافا أذنت للصّليبيّين بتحصين ما سبق الإشارة إليه. فالمؤكّد أنّ ذلك لن يكون إلاّ بعد مرور عقد عن تاريخ توقيع الاتّفاقيّة، أي في حوالي 1239م(637هـ)، ممّا يقودنا للاستنتاج أنّ الجماعة الألمانيّة قد استهلّت بناء القلعة قبل هذا التّاريخ، وأن ما تضمّنته المعاهدة لا يعدو السّماح باستئناف مهمّة بناء مونتفورت بعد انقضائها.

من المحتمل جدا أن بناء قلعة مونتفورت كان بين أواخر سنة 1227م ومطلع 1228م(625هـ / 226هـ)، وهو التّاريخ الذي شدّدت عليه جلّ الأبحاث والدّراسات، فقد أشار عديد المؤرّخين في طليعتهم فان كلوف(Van Clève: 1969 :488) إلى أنّ أشغال البناء والتّوسعة قد انطلقت مع بداية خريف سنة 1227م(625هـ) واستمرّت إلى ربيع العام الموالي(Pringle R.,Leacher peter:1986:53)، وذلك فور بلوغ الصّليبيّين الألمان الذين سبقوا الإمبراطور فريدريك الثّاني الأراضي المقدّسة. لا شكّ أنّ عمليّة تشييد المعقل الرّئيسي لهيئة الفرسان التيوتون تطلّب حتما وقتا وجهدا، بالإضافة إلى تمويل ماديّ

ضخم، خاصّة العامل الأخير الذي شكّل عائقا في سبيل استكمال المشروع.

فعلى الرغم من تسخير الهيئة لكافّة إمكاناتها ومواردها الماديّة، إلاّ أنّها اضطرّت إلى مناشدة البابويّة في أكثر من مناسبة بغية دعم بناء القلعة كونها أضحت عاجزة عن ذلك، واستجاب الكرسي الرّسولي إلى التماس هيئة الفرسان التيوتون، ففي 10جويلية/ تموز عام 1230م(627هـ) منح البابا جريجوري التّاسع(Gregory IX) (أنظر تعليق رقم:5) عشر إيرادات صندوق عشور المعاصي لمدّة عشر سنوات. كما استفاد التّنظيم من منحة بابويّة أخرى قدّمها إنوسنت الرّابع(Innocent IV) في سبتمبر/أيلول عام 1245م(643هـ) (Sterns Indrikis: 1969 :355).

الواقع أنّ الهيئة كانت تستعجل استكمال مشروع بناء القلعة بغية نقل ممتلكاتها وصناديق عقودها ووثائقها الرّسميّة إلى مؤسّستها الجديدة وفي سياق تثبيت أقدامها هناك فإنّ قيادة هيئة الفرسان التيوتون عيّنت أوّل آمر للقلعة في أواخر أكتوبر سنة 1230م(628هـ). من الجليّ أنّ تشييد وتحصين قلعة مونتفورت تمّ عبر مراحل وفترات زمنيّة متباعدة، وإذا كان الجزم بتاريخ دقيق لانتهاء الأشغال بها يبقى أمرا عصيّا جدّا في ضوء نقص المادة التاريخيّة التي تناولت الموضوع، إلاّ أنّ الدراسات

الحديثة ترجّح أنّ ذلك كان في أربعينيّات القرن الثّالث عشر الميلاديّ. ويستشفّ ذلك من خلال نقل كرسي المقدّم الأوّل لهيئة الفرسان التيوتون إلى قلعة مونتفورت على عهد المقدّم جيرارد فون مالبورغ(Gerhard Von Malberg)، وتحديدا في سنة 1244م (642هـ). (Sterns Indrikis: 1969 : 355)

- تخطيط القلعة.

أفضت الحفريّات التي أجراها علماء الآثار على موقع قلعة مونتفورت في عام 1926م تحت إشراف باشفورد دين(Bashford dean)(1927)، أمين عام فرع الأسلحة والدّروع في متحف ميتروبوليتان للفنون نشرت في العام الموالي، إلى إعادة رسم مخطّط لها وتقديم وصف دقيق لنمط عمارتها التي برز فيها فن العمارة العسكرية لقلاع إقليم رينانيا. من الواضح أنّ الفرسان التيوتون في فلسطين قد حرصوا على تقويّة روح الدّفاع بشكل دائم، ويتجلّى ذلك من خلال الموقع النّائي لقلعة مونتفورت، المتوراي عن المراكز التّجاريّة والتّجمّعات السّكانيّة، بالإضافة إلى أنّهم لم يغفلوا في اختياره عامل التحصين الطّبيعي لتأسيس معقلهم مع تقويّته بمنشآت دفاعيّة أخرى.

ولعلّ السّبب الرّئيس الذي حدّد مسار اختيار موضع القلعة يعود إلى أنّه جاء لمعالجة النّقص الفادح في عدد الرّجال، خاصة إذا علمنا أنّ الهيئة كانت إبّان هذه الفترة قد وضعت لها قدما في منطقة حوض البلطيق. ويقدّر دين باشفوررد (1927:6) أنّ طول القلعة ـ باحتساب طول البرج ـ يبلغ مائة وستة أمتار (106م) فيما قدّر عرضها بأربع وعشرين مترا (24م)، وهي محاطة بسور خارجيّ طوله أربعمائة وسبع وخمسون مترا (457م) . ويشير بواز(Boas Adrian:2006: 92) في دراسته القيّمة إلى أنّ الفرسان التيوتون استخدموا الحجارة المشذّبة الضّخمة التي تزوّدوا بها من مقلع الحجارة بتارفيل(Tarphile) لتشييّد القلعة وتشتمل القلعة على مبنى رئيسي، البرج، الخنادق، الخزان والبوابات.

يمتدّ المبنى المركزيّ للقلعة على مساحة مستطيلة تتلاءم مع شكل قمّة الهضبة، ''وهو بطول خمسون مترا (50م) وعرض عشرون مترا(20م) يتألف من طابقين، الطّابق الأرضي وينقسم إلى سردابين: الرّئيسي، يقع في النّاحية الشّرقيّة، يمتدّ سقفه ذي العقود المدبّبة على طول ثمانية عشر مترا (18.2) وعرض حوالي سبعة أمتار ونصف (7.5م) وارتفاع أربعة أمتار(4م) فيما يبلغ سمك جدران السّرداب الرّئيسي حوالي المترين'' (Boas Adrian:2006 :91). وللسرداب بوابة تتموضع

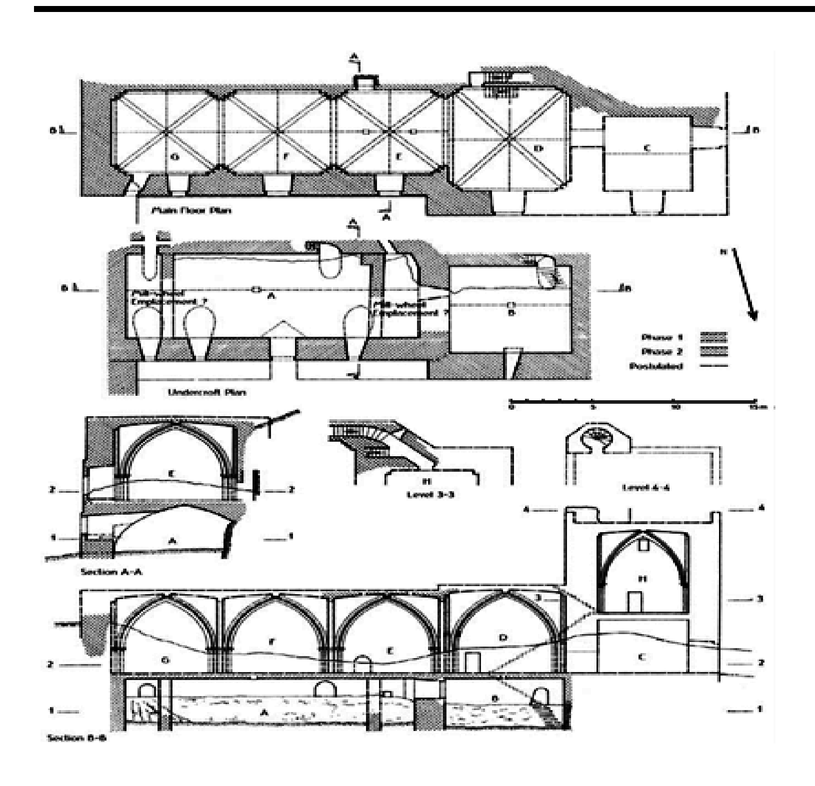
في الجدار الشّمالي بالإضافة إلى أربعة نوافذ مشكّلة من المشابك الحديديّة، اثنتان منهما على الجهة الشّرقيّة من البوابة، وواحدة على الجهة الغربيّة، أمّا الأخرى فهي على الجدار الفاصل عن السّرداب الثّاني الذي يقع في الجانب الغربيّ، وهو أصغر مساحة مقارنة بالأوّل (Boas Adrian:2006: 91)

يرجّح علماء الآثار أنّ السّرداب الأوّل بني في فترة لاحقة قبل الشّروع في بناء الصّالة والبرج، بالنّظر إلى سمك جداره الشّماليّ المقدّر بالمترين والنّصف، وفي أقصى الجهة الغربيّة منه هنالك سلالم تنتهي إلى الطّابق العلويّ. (Boas Adrian:2006: 91)

الطّابق العلويّ: وهو عبارة عن صالة رحبة، سقفها مقسّم إلى مساحات فسيحة أو خلجان أربع متساوية المساحة عن طريق ممرّين متوازيّين من العقود البرميليّة المدبّبة المحمولة على أرتال على شكل صليب حيث تجلّى فن العمارة القوطيّة بامتياز.

يتميّز الخليج الأخير الواقع إلى أقصى الغرب بارتفاعه عن البقيّة، لكلّ من هذه الخلجان نافذة على الجدار الشّمالي، ومن البديهي أنّ هذا المبنى المركزيّ اشتمل على قاعة استقبال الشّخصيّات النّافذة، ومهاجع الفرسان، مطبخ وقاعة طعام بالإضافة إلى أجنحة أخرى (أنظر الشّكل رقم1)(Boas Adrian :2006:91)

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 249-279



(Adrian Boas,2006:90)

وممّا هو جدير بالاهتمام، ما ذكره المؤرّخ الإنجليزي مورتون (Morton Nicholas:2009: 18) اعتمادا على مدوّنة للرّاهب الألمانيّ، فيلكس فابري(Félix Fabri) (أنظر التّعليق رقم:6) بشأن وجود مبنى منفصل عن المبنى الرّئيسي، خصّص للنّساء الرّاهبات والصّليبيّات. غير أنه ليس هناك ما يؤكّد هذه الفرضيّة، ومن المستبعد أن تكون الهيئة قد ضمّت في صفوفها النّساء بينما كانت تنشط في بلاد الشّام، إذ يشير ابن

أيبك في سياق حديثه عن حصار القلعة إلى اقتصار وجود الرّجال دون النّساء والأطفال (ابن أيبك، 1971:8:161)، ولعلّ ما يدعم هذا الاعتقاد أيضا، هو أنّ أوّل فرع نسائي تيوتوني تمّ الإعتراف به رسميّا ولد في وسط أوربا(34-33: 2012: Bom Miranda).

البرج (The keep):

تميّز برج قلعة مونتفورت على غرار أبراج قلعتي صافيتا وطرطوسة بكونه من الأبراج الحرّة أو المستقلة(free-keep) المنفصلة عن هيكل القلعة الرّئيسيّ، ''وذلك بعد اضمحلال أهميّة البرج الذي كان يتوسّط القلاع قبل القرن الثّالث عشر الميلاديّ'' (عبد الرحمن زكي،1969: 72)، كما شيّد البرج في أضعف نقطة دفاعيّة على الجبهة الشّرقيّة باعتبارها الواجهة الأكثر استهدافا. هذا وقد اعتمد الفرسان التيوتون في بنائه أسلوب الأبراج القديمة مربّعة الشّكل تقريبا، إذ تبلغ أبعاده 25 مترا، يتّخذ شكل حرف (D) كما وصفه المؤرّخ مولين(Molin) (2001: 23,80). يتّصل البرج بالمبنى الرّئيسي عن طريق سلالم طولها خمسة (5م) أمتار تقع في جهته الغربيّة، وبالإضافة إلى الطّابق الأرضي الذي شكّل خزّان القلعة فإنّ البرج كان ينقسم إلى طابقين.

أمّا كنيسة القلعة فإنّ الأبحاث الأثريّة تدعم فرضيّة إقامتها في أحد طوابق البرج بالنّظر إلى شّكل الجدار الشّرقي النّصف دائريّ، وهو ذات التّخطيط الذي اتّبع في بناء كنيسة قلعة صيدا (Boas Adrian: 2006:128).

بالإضافة إلى هذه التّحصينات، كانت القلعة مونتفورت محاطة بخندقين محفورين في الصّخور على الجبهة الشّرقيّة،" أحدهما داخلي يقع على مقربة من البرج، ممتدّ على طول أحد عشر (11) وعرض عشرون (20) مترا، في حين بلغ عمقه تسعة (9) أمتار. أمّا الخندق الخارجي فهو يقع على بعد مسافة قدرها خمسون (50) مترا شرقي الخندق الأوّل، عمقه حوالي ثلاثة عشر (13) مترا، فيما قدّر عرضه على أقصى تقدير بـ عشرة(10) أمتار، وزاد من حصانة القلعة وفعاليتها إضافة السّاتر الدّائري والمداخل السّريّة. (Boas Adrian: 2017: 102)

وعلى الرّغم من كلّ هذه تحصينات التي تتمتّع بها مونتفورت، إلاّ أنّ بعض الباحثين يقرّون برداءة بنيتها المعمارية مستدلّين بحاجة الفرسان مرارا إلى تمويل لاستكمال بناءها، وأنّها على عكس قلاع صفد، الكرك، المرقب، وعثليت تفتقر إلى منظومة دفاعيّة ناجعة مثل الأبراج المتّصلة ببعضها أو المداخل والدّهاليز المتشعّبة الصّعبة. بيد أنّ ما تغاضى عنه هؤلاء، هو الطبيعة الوعرة للموقع التي تغنيها عن ذلك

ـ دور قلعة مونتفورت ومكانتها الإداريّة والحربيّة.

من الشّائع أنّ هدف الفرسان التيوتون من بناء قلعة مونتفورت، هو اتّخاذها كمقرّ قيادة الهيئة الرّسميّ خلفا لمعقلهم الأوّل بعكّا، إلاّ أنّ تتبّع السّجلات التّاريخيّة يوحي بأنّ عكّا استمرّت تمثّل المعقل المركزيّ، انطلاقا من قوانين الهيئة التي تنصّ على ضرورة وجود المشفى في المقر الرّئيسي للطّائفة الألمانيّة مع تجهيزه بطاقم الأطباء والممرّضين وهو شرّط أساسي افتقرت إليه القلعة. (Sterns Indrikis: 1989 : 27). كما أنّ إلقاء الضّوء على موقع عكّا الاستراتيجي يدعم هذا الطّرح، خاصّة في ظلّ إشارة الكرسي الرّسولي مرارا إلى مملكة عكّا على أنّها مقرّ كرسي المقدّم الأوّل للجماعة الألمانيّة.

صحيح أنّ هذه الحجج منطقيّة إلى حدّ بعيد، بيد أنّ هناك ما يثبت أيضا توليّ القلعة إدارة شؤون الطّائفة الألمانيّة، ويستشفّ ذلك من خلال مكانة آمرها التي لا يُفصل فيها إلاّ من طرف قادة الهيئة على رأسهم المقدّم الأوّل. إذ وعلى عكس آمري القلاع الأخرى التّابعة للفرسان التيوتون الذين يخضعون لسلطة حاكم الإقطاعيّة المحليّ، فإنّ آمر قلعة مونتفورت يخضع رأسا لإمرة المقدّم الأوّل (Morton Nicholas: 2009 :170).

حجّة أخرى تؤكّد أنّ القلعة شكّلت مؤسّسة إداريّة مركزيّة، تتمثّل في احتضانها لصفقات الهيئة العقاريّة. ممّا يقودنا للحديث عن وجود خزنة بها احتفظت باحتياط ماليّ، وهذا إنّما يدلّ على أهمّيتها وأولويتها مقارنة بالقلاع الأخرى. (Morton Nicholas: 2009 :170)

تأسيسا على ما تقدّم، يمكن القول بأنّ هيئة الفرسان التيوتون جمعت في إدارة شؤونها وتوليّ مسؤولياتها بين مقرّها الأوّل بعكّا وقلعة مونتفورت، وإنّ استمرار عكّا كقاعدة ملك التنظيم لا يلغي الدّور الرّيادي الذي اضطلع به الحصن الجديد، إذ أبرز العديد من المؤرّخين في طليعتهم باشفورد دين شأن القلعة وملائمتها لأداء المهام الإداريّة، فضلا عن أنّها شكّلت مركزا اقتصاديّا لإقطاعيّة معليا خلفا لقلعة الملك. أمّا بالنّسبة للدّور العسكريّ الذي لعبته قلعة مونتفورت، وجب الإقرار بمحدوديّة قدرتها وفاعليّتها الحربيّة وأنّها لم تكن بتلك الدّرجة من الإثارة للإعجاب مقارنة بمعاقل تنظيمي الدّاويّة والإسبتاريّة التي تولّت العبء الأعظم دفاعا عن التّواجد الصّليبي في الشّرق الأدنى الإسلامي وشكّلت شوكة في حلق الجيوش الإسلاميّة. ولطالما كانت مونتفورت بعيدة عن أحداث الصّراع الحاصلة وقتذاك في ظلّ الدّور الثّانويّ الذي اضطلع به الفرسان التيوتون في بلاد الشّام وبحكم موقعها النّائي الذي جنّبها

الاحتكاك مع العدوّ وأمّنها من كلّ غزو حيث لم ير المسلمون في القلعة ما يشكّل تهديدا كبيرا عليهم.

ـ مونتفورت بين الحصار والنّار.

سقوط القلعة 1271م(670هـ).

في خضمّ سياسة المماليك القاضية بتصفية الوجود الصّليبي بالمشرق الإسلامي وتقويض دعائمه، شرع الظّاهر بيبرس سلطان مصر في مهاجمة الحصون والإمارات الإفرنجية التي أخذت تتداعى الواحدة تلو الأخرى بدءً بقيساريّة وأرسوف. تعود أولى المحاولات الجديّة للاستيلاء على قلعة مونتفورت إلى عام 1266م(665هـ) إثر استحواذ الظّاهر بيبرس على أجزاء واسعة من الجليل، حيث باغتت الجيوش الإسلاميّة التي أوفدها هذا الأخير بقيادة بدر الدّين الأيدمري وبدر الدّين البيسري القلعة، بيد أنّ الفرسان التيوتون أبانوا رغم قلّة عددهم عن دفاع مستميت اضطر المسلمين إلى التّراجع. (Morton Nicholas: 2009 : 157, 170)

ورغم أنّ هذه الحملة التي شنّها المسلمون على مونتفورت في 1266م(665هـ) لم تحقق هدفها، إلاّ أنّها مكّنتهم من سبر أغوار الموقع، الذي كان يتطلّب مزيدا من العدّة والعتاد. في 1271م(670هـ)، ولّت الجيوش الإسلاميّة المفعمة بالنّصر بقيادة الظّاهر بيبرس أنظارها مجدّدا

صوب مونتفورت التي أصبحت القلعة الدّاخليّة الوحيدة المحصّنة تقريبا، وكانت قد ظفرت بمعظم القرى التّابعة لها، وأذعنت لها أعتى معاقل الإفرنج على غرار صافيتا، الكرك وعكار بعد حصار لم يتجاوز بضعة أسابيع، حيث خرج الظّاهر من دمشق على رأس جيوشه ونزل بصفد مركز عمليّاته بمنطقة الجليل يتجهّز لفتح مونتفورت (Morton Nicholas: 2009 : 158).

والجدير بالذّكر، أنّ تاريخ بدء أعمال الحصار على قلعة مونتفورت ومدّته مختلف فيه، لكنّ ابن عبد الظّاهر أورد أنّ المسلمين استأثروا بالرّبض في أوّل ذي القعدة11جوان عام 1271م(670هـ)، ونصّبوا المجانيق على الجبهة الجنوبيّة لغور الوادي بحكم دنو الحصن من هذه الجهة ممّا يجعله في نطاق الآلات الحربيّة. ورغم ما ذكره ابن أيبك حول عدم قدرة المسلمين على نصب المجانيق لصعوبة تضاريسه (ابن عبد الظّاهر 1976 :385-386؛ ابن أيبك:1:1971)، إلاّ أنّ المؤرّخ بواز (Boas :2006 :127) أثبت استنادا إلى أبحاث أثريّة أنّ مونتفورت تعرّضت فعلا للرّمي بالمجانيق.

تمكّن المسلمون في اليوم الموالي 2 ذي القعدة/ 12جوان من إحداث ثغرات في أسوار القلعة، واستمرّت جحافل المسلمين على مدار أسبوع ترمي بثقلها في محاولة منها لاقتحام مونتفورت بعدما استعصت

عليهم، فقد كانت أسوار القلعة منيعة مدعّمة حجارتها بالرّصاص ومثبتات حديديّة. وفي ظلّ صعوبة المهمّة لم ير الظّاهر بيبرس إلاّ بجزل العطاء لجنوده تشجيعا لهم ووعد بتقديم ألف درهم على كلّ حجر تتمّ إزالته. (عبد الوهّاب حسين:1989:310).

ويتضّح ممّا أوردته المصادر العربيّة أنّ فرسان الطّائفة الألمانيّة استبسلوا في الدّفاع عن حصنهم الرّئيسي بالأراضي المقدّسة، لكن وإزاء الخسائر المتتالية للصّليبيّين وتهاوي أهمّ خطوطهم الدّفاعيّة ببلاد الشّام في ظرف قياسي، علاوة على انعدام الإمدادات اللازمة، أدرك الفرسان التيوتون أنّه لا جدوى من المقاومة، إذ ما لبثوا أن أبدوا رغبة الشّروع في مفاوضات الاستسلام. عقب مضيّ أسبوع واحد فقط على القتال، أوفد الماريشال يوهان فون ساخسن(Johan Von Sachsen) رسل الصّلح إلى الظّاهر بيبرس(Kennedy Hugh:1994:129).

أسفرت مفاوضات التسويّة إلى منح السّلطان الأمان لأعضائها والسّماح لهم باختيار وجهتهم مع تجرّيدهم من أسلحتهم وأموالهم (أنظر التّعليق رقم:7)، واختار الفرسان التيوتون التّراجع إلى مملكة عكّا التي كلّف بدر الدّين البيسري باصطحابهم إليها. وفي 18 جوان/ يونيو من نفس السّنة سقطت قلعة مونتفورت بأيدي المسلمين، حيث أمر الظّاهر بيبرس بوجوب هدم القلعة واجتثاثها من المنطقة، وانتهت أشغال تفكيك

مونتفورت بحلول 4 جويلية/ تموز 1271م(670هـ) (ابن أيبك:1971: 8: 162). وقد سجّل الرّحالة الألماني بورشارد وصفا لبقايا آثار القلعة المدمّرة أثناء زيارته للأراضي المقدّسة في أواخر القرن الثّالث عشر الميلاديّ. (بورشارد: 1995: 58)

خاتمة:

الأكيد أنّ سقوط مونتفورت شكّل ضربة قاصمة لهيئة الفرسان التيوتون وكذا الغرب الصّليبي وعلى رأسه البابويّة التي اعتبرها واحدة من أهمّ الحصون التي يعتدُّ بها لدرء هجمات المسلمين عن تخوم الممالك الصّليبيّة في الشّرق الأدنى الإسلاميّ آنذاك، وصنّفت من بين أهمّ عشر قلاع في مملكة بيت المقدس، على الرغم من أنّها لم تشكّل تهديدا كبيرا على المسلمين.

لكن مونتفورت، وبالنّظر إلى موقعها الحصين في منطقة الجليل فإنّ وجودها قد ضايق المسلمين، وكان سقوطها إيذانا بتطهير منطقة الجليل من الصّليبيّين بشكل كليّ، إذ لاشكّ أنّ فتحها قد أضفى نفسا جديدا للجيوش الإسلاميّة ودعّم مركزها في مواجهة الصّليبيّين.

التعاليق والشروح:

التّعليق رقم1: تنظيم رهباني عسكري ظهر في الأراضي المقدّسة عام 1191م(587هـ) في خضمّ حصار مدينة عكّا، إبّان الحملة الصّليبيّة الثّالثة، على عكس هيئتي الدّاويّة والاسبتاريّة، فإنّ الطّائفة الألمانيّة قد جمعت من البداية بين الجانب الحربي والخيري، وتمّ الاعترف بها من طرف البابا كليستين الثّالث عام 1198م(495هـ) بشكل رسمي. بعد ربع قرن على نشأة هيئة فرسان التيوتون نقلت هذه الأخيرة حيّز نشاطها من الأراضي المقدسة إلى منطقة حوض البلطيق.

التّعليق رقم2: أو المجذوم، ولد في صيف 1161م(557هـ)، والده ملك بيت المقدس عموري الأوّل "Aimery I" ووالدته أجينيس كورتناي، أوكل والده مهمّة تعليمه إلى وليام أسقف صور الذي اكتشف إصابته بمرض الجذام. تولى بلدوين الرّابع سدّة عرش مملكة بيت المقدس عقب وفاة والده في عام 1174م(570هـ)، لكن ونظرا لصغر سنّه وضع تحت وصاية رايموند الثّالث"Raymond III"

التّعليق رقم3: (1210ـ1239م) ولد هرمان في حوالي سنة 1180م(576هـ)، ينتمي لعائلة إدارية ثورنجيّة، وهو المقدّم الرابع لهيئة فرسان التيوتون، يعدّ كمؤسّس ثان للهيئة، فخلال فترة ولايته على هيئة

الفرسان التيوتون، انتقلت هذه الأخيرة من تنظيم متواضع إلى تنظيم أكثر فاعلية وتأثيرا على ساحة الحروب الصليبيّة، كما لعب دور الوسيط بين فريدريك الثّاني والبابا جريجوري التّاسع.

التّعليق رقم4: (1194ـ1250م) إمبراطور الإمبراطوريّة الرّومانيّة المقدّسة، يعدّ أحد أشهر ملوك العصور الوسطى الأوربيّة، لقّب بأعجوبة العالم، ينحدر فريدريك من أسرة الهوهنشتاوفن، والده هنري السّادس ابن فريدريك بربروسة، ووالدته كونستانس وريثة عرش صقليّة وابنة الملك النورماندي روجر الثّاني. اشتهر فريدريك الثّاني بعلاقته الطّيبة مع المسلمين وهو ما فتح عليه باب عداء البابويّة، قاد الحملة الصّليبيّة السّادسة ضدّ المشرّق الإسلامي في عام 1229م(627هـ) مكّن من خلالها الغرب المسيحي من الاستيلاء على بيت المقدس عقب معاهدة يافا مع السّلطان الكامل.

التّعليق رقم5: (1227ـ1241م) اسمه الحقيقي هوغولين "Hughlin"، عيّنه عمّه البابا إنوسنت الثّالث عام 1198م(495هـ) كاردينالا ورئيس شماسة كنيسة القديس أوستاس، ثم تدرّج في السلك الكنسيّ حتى تمّ انتخابه لاعتلاء الكرسيّ الرّسولي في مارس عام 1227م(625هـ) وتوّج في أفريل من نفس السّنة. دخل البابا جريجوري التّاسع في صراع مرير مع الإمبراطور فريدريك لأجل القيام بحملة

صليبيّة سادسة، ومن أهمّ أعماله إصداره مجموعة تشريعات تضبط نشاط الكنيسة الكاثوليكيّة في 1234م(632هـ).

التّعليق رقم6: (1437ـ1502م) اسمه الحقيقي فليب شميد"Schmid" راهب دومنيكاني ولد في مدينة زيورخ الحالية عام1437م، وعاش متنقّلا بين داوزنهوفن"Diessenhofen" على نهر الرّاين وقلعة كيبورغ "Kyburg". في عام 1452م(856هـ) انظّم إلى دير للدومنيكان في بازل"Basle" وأقسم على الولاء في السّنة الموالية، تولّى حركة إصلاح دير أولم"Ulm" منذ عام 1468م(873هـ)، قام برحلتي حجّ إلى بلاد الشّام وسيناء ومصر في سنة 1480م(885هـ) و1483-1484م(888-889هـ)، ترك من خلالهما وصفا دقيقا لبيت المقدس وضواحيها. نشرت رحلة فابري مترجمة في مجلّدين لأوّل مرّة في سنة 1896م ضمن مجموعة,Palestine pilgrim's text society

التّعليق رقم 7: الواضح أنّ هيئة الفرسان التيوتون قد أدركت الأخطار التي كانت تتهددها، خاصّة عقب سقوط معاقل الدّاوية والاسبتارية حيث نقلت جزءً من صناديق عقودها ووثائقها إلى مملكة عكّا، فيما حوّلت الجزء الآخر إلى منطقة حوض البلطيق، أين شرعت في النّشاط هناك منذ الربع الأوّل من القرن الثّالث عشر الميلاديّ، ويستشف ذلك

من خلال استمرار الهيئة في أداء نشاطها بعكّا إلى غاية سقوط هذه الأخيرة في 1291م(691هـ).

المراجع :

- ابن أيبك الدواداري ،(1971). **كنز الدّرر وجامع الغرر**. تحقيق أولرخ هرمان، ج.8. القاهرة.

- ابن عبد الظّاهر محي الدّين،(1976). **الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظّاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط1، الرّياض.

- بورشارد من دير جبل صهيون،(1995). **وصف الأرض المقدّسة**، ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البيشاوي، ط1، عمان: دار الشّروق.

- حسين حسن عبد الوهّاب،(1989). **تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدّسة 1190-1291م**، تقديم جوزيف نسيم يوسف، الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.

- الدّمشقي شمس الدّين، (1865) ، **نخبة الدّهر في عجائب البرّ والبحر**، بطرسبورغ.

- زكي عبد الرحمن ، (1969)، **القلاع في الحروب الصّليبيّة**، المجلة المصرية، مج.15، ص.ص.49-87.

- المقريزي تقي الدّين، (1936). **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق مصطفى زيادة. الجزء1، القسم2، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريّة.

-BASHFORD DEAN, (1927). "The exploration of a crusader's fortress Montfort in Palestine". The métropolitain muséum of art Bulletin. N°22. New-York. PP.5-46.

-BOAS ADRIAN, (2017) . "Interpretation of the parts" In (BOAS Adrian). Montfort history early research and recent studies of principle fortress of the Teutonic order in the Latin east. Brill Leiden.P.P102-119.

-BOAS ADRIAN، (2006) .Archaeology of the military orders a survey of the urban center rural settlement and castles of military orders in the Latin east (1120-1291). First Pub. Rutledge pub .U.S.A.

BOM MYRA MIRANDA, (2012).Women in the military orders of the crusades,Palgrave Macmillan pub.,First pub.

-HELMUT NICKEL، (1989). "Some heraldic fragment found at castle Montfort/Star ken berg in 1926 and the arms of the grand master of the Teutonic knights." the metropolitan museum of art. Journal 24 . PP.35-46.

-KENNEDY HUGH,(1994). Crusader castles. First pub Cambridge university press.

-MOLIN KRISTIAN(. 2001). Unknown crusader castles. First Pub. New York-London.

-MORTON NICHOLAS, (2009). The Teutonic knights in the Holy land 1190-1291. First publish. the Boydell press .

-Pringle R. Denys Leach Peter E. :(1986), A thirteenth century hall at Montfort castle in western Galilee, the antiquaries journal,Vol.,66, Issue 1, March, PP.52-81.

-RABEI G. KHAMISY,(2017). "History and archaeology of the Frankish village of Tarphile". In (Boas Adrian). Montfort history early research and recent studies of principle fortress of the Teutonic order in the Latin East. Brill Leiden. Boston. PP.128-136.

-RAFAEL LEWIS, (2017). "How strong was Montfort? Preliminary remarks on the possible location of the Mamluk siege position at Montfort castle". In (Boas Adrian). Montfort history early research and recent studies of principle fortress of the Teutonic order in the Latin East. Brill Leiden. Boston. PP.281-286.

-STERNS INDRIKIS, (1969). The statutes of the Teutonic knights a study of religious chivalry. Published Doctoral these (History). University of Pennsylvania. U.S.A.

-STERNS INDRIKIS, (1985). “The Teutonic knights in the crusader states”. In (SETTON Kenneth). A history of the crusades the impact of the crusades on the near east. Vol .5. First pub. The university of Wisconsin Press. U.S.A. PP. 315-378.

-VAN CLEVE THOMAS, (1969)."The crusade of Frederick II". In (SETTON Kenneth). A history of crusades the later crusade 1189-1311. Vol. 2. The university of Wisconsin Press. PP. 429-462.